الهدية بين الرابطة الاجتماعية والمنفعة الاقتصادية

The gift between social association and economic benefit

الباحث.عباس الزهرة_جامعة عبد الحميد بن باديس_مستغانم-الجزائر
بإشراف الدكتور.محمد حمداوي_جامعة عبد الحميد بن باديس_مستغانم-الجزائر
مخبر الخلدونية الجديدة والمؤسسات العمرانية والسلطة

ملخص:

لقد حاولنا في هذا المقال التطرق إلى موضوع التبادل، باختيار الهدية نموذجا لذلك، ومتسائلين حول ما إذا كانت الهدية عاملا مقويا ومعززا للرابطة الاجتماعية، أو وسيلة لربط علاقات اجتماعية هادفة لتحقيق غاية مادية. و لقد استدعى ذلك التطرق إلى مجموعة من العناصر المرتبطة بالهدية، وذلك بتعريفها وتحديد طبيعتها ووظائفها، والتطرق إلى المناسبات التي يتم فيها تبادلها. كما وقفنا أيضا على أنواع العلاقات التبادلية التي تجعل من الهدية عطاء مجانيا بريئا، أو هبة مغرضة يتوخى صاحبها مقابلا ماديا أو معنويا مضمرا، باحثين عن العوامل والأسباب التي تتحكم في هذا النوع من التبادل، مهما كان الهدف الذي يراد تحقيقه من وراء ذلك. وتبقى الهدية كما لاحظ ذلك صاحب أول دراسة أنجزت عن الهبة وأكثرها شهرة وذيوعا، الأب المؤسس للاثنولوجيا الفرنسية مارسيل موس، ظاهرة لها أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، التي تجعلها بحق ظاهرة كلية.

Abstract:

In this article, we have tried to analyze the phenomenon of exchange, choosing for example the gift. It is a question of whether the gift constitutes a consolidating factor of the social bond or if, on the other hand, it is only a means to establish relations that can enable the realization of interests. properly material. That said, such an approach required the study of certain elements relating to the gift: its definition, the determination of its nature, its functions. We also studied opportunities or gifts and gifts are exchanged between individuals. In addition, we try to highlight the different exchange relationships that make the gift either a generous gesture or a calculated gesture, aimed above all at the realization of material or symbolic unacknowledged interest. Here, it is a question of seeking the reasons and reasons which determine this type of relationship. Finally, the gift remains, by its economic, social and cultural dimensions, a global fact, as rightly pointed out by the father of the French ethnology, Marcel Mauss.

مقدمة:

تعتبر الهدية ظاهرة إنسانية، حيث أن تبادلها كان دائما موجودا لدى المجتمعات، التي أمكن علماء التاريخ والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع دراستها، سواء القديمة منها أو المعاصرة. وفي المجتمع الجزائري، فإن تبادل الهدايا لا تخلو منه أية مناسبة، دينية أو اجتماعية، إذ يحتل مكانة هامة في الممارسات الاجتماعية، ويسم بطابعه الخاص السلوكات الفردية و الجماعية. ولا يعوز الباحث أن يلاحظ ذلك، في كل عيد من الأعياد الدينية أو الوطنية، أو في كل حدث تعرفه أوساطنا العائلية وغير العائلية، أيا كانت طبيعة هذا الحدث، مناسبة سارة أو حزينة.

كما لا تنفك الدراسات السوسيولوجية والانتروبولوجية العديدة تطلعنا على هذا النوع المتميز من الممارسات الاجتماعية، وعلى الأدوار المختلفة التي تلعبها، وعلى الأهداف الاجتماعية والإنسانية التي تعمل على تحقيقها، والتي ليس التضامن والتكافل، وتعزيز العهود وعلاقات التعاون، و تقوية الروابط الأخوية والقرابية وروابط الصداقة، إلا بعضها.

لذلك سوف نحاول في هذه الدراسة الوقوف على حقيقة العلاقة الكامنة بين تبادل الهدايا والمنفعة الاقتصادية، والكشف عن الأساس الاجتماعي للهدايا الذي يوجه سلوكات الأفراد نحو ممارساتهم، ومعرفة القواعد والأسس التي تضمن استمرارها، والتي لها علاقة بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمجتمع ككل.

ولأن أشكال التبادل تختلف باختلاف المواقف والمناسبات، فإن اهتمامنا في هذه الدراسة سوف ينصب على الهدايا المتبادلة في المجتمع الجزائري، منطلقين في ذلك من دراسات سابقة، ومن واقع الأسر و بعض الجماعات، وبعض الأفراد الذين أمكنتنا ملاحظتهم أو مقابلتهم، أو تحصيل معطيات بصورة غير مباشرة عنهم.

وعلى هذا الأساس فإننا سوف نتطرق إلى مفهوم الهدية وأنواعها ووظائفها، وإلى المناسبات وطبيعة الهدايا المتبادلة خلالها، ثم ننتقل إلى الخاصية السوسيو- اقتصادية لها.

أولا. الهدية: تعريفها، أنواعها ووظائفها.

لا يمكن لأفراد المجتمع أن يعيشوا مدنيتهم بصورة عادية، دون أن يكون بينهم تبادل للأشياء والنساء والخطاب، أي تبادل شامل لكل المجالات الحيوية. وضمن هذه التبادلات، فإن التبادل الذي يأخذ شكل الهدية أو الهبة يحتل مكانة متميزة بين العلاقات الاجتماعية. ذلك أن الهدية التي تتميز بكونها إرادية يقدمها الفرد عن طواعية، ومجانية لا يتوقع أن يتلقى عليها مقابلا معينا، لا تلبث أن تكشف عن كونها ظاهرة ملزمة. ويكفي أن تكون ظاهرة اجتماعية حتى تكون كذلك، فالمجتمع الذي يجعل من تبادل الهدايا قاعدة، لا بد أن يجبر أفراده على تقديمها، ويكسبها بذلك خاصيتها الإلزامية" (تولرا، فارنييه، 2004: 301).

وللإلمام ببعض جوانب الهدية وإعطاء صورة عنها تكون على مستوى من الوضوح، فإننا سوف نقوم بتعريفها، والوقوف على بعض الأنواع منها، وذكر بعض الوظائف الهامة التي تقوم بتأديتها، مثل الوظيفتين الاقتصادية والاجتماعية.

1. تعريف الهدية:

تدل الهدية، لغة، على "ما يقدم من الأشياء إكراما أو تودد أو إسهاما بفرح" (؟،2008 :147). وقد جاءت في لسان العرب بمعان مختلفة، منها : أن " الهدية هي ما أتحفت به " (ابن منظور، 1997: 319.320). فأهدى له أو إليه شيئا أو أتحفه به، يحملان معنيين مترادفين. فإن كان الفعل أتحف معناه " أعطى تحفه " (مرجع سابق، 2008: 144)، كان معنى أهدى كذلك، ولذلك نقول: أهداه هدية لطيفة أو " أتحفه هدية لطيفة " (المرجع نفسه) ونقول أيضا: أتحفه بشيء، حتى وإن كان الشيء المقدم معنويا، مثل " أتحفنا بأبيات من الشعر" (المرجع نفسه). ولا فرق هنا بين الشعر والتحفة المادية، لالتقائهما في القيمة التي يوليها إليهما المتلقي، وفي المتعة التي يشعر بها، سواء في تلقيه هدية مادية أو شعرا.

ولقد وردت لفظة " الهدية " في القرآن الكريم مرتين: في قوله تعالى على لسان الملكة بلقيس، وهي تقرر إرسال هدية إلى النبي سليمان: " وَإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرْسَلُونَ " (سورة النمل، الأية: 35)، وفي قوله تعالى على لسان سليمان، وهو يرفض هدية بلقيس: " فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءاتَيِنِ الله خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَيكُمْ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ " (سورة النمل، الأية:36).

وإذا كان بعض المفسرين يرون أن الهدية، التي أرسلتها بلقيس لسليمان عليه السلام، "هي عبارة عن ذهب وجواهر ولآلىء، ويرى بعضهم أنها لبنة من ذهب، ويرجح آخرون أنها أواني من ذهب" (ابن كثير، 2006: 461)، فإن الهدية هي ما كانت عطاء ثمينا، إمّا لمودة أو مجاملة أو مصالحة، وأنها تختلف باختلاف الانتماء الطبقي للأفراد الذين يقدمونها، فتكون سبائك من ذهب، كما تكون حفنات من تمر، وكما تكون كلاما طيبا، بهدف إدخال المتعة والفرح والسرور على الشخص المقدمة إليه. ويبين أبو الطيب المتنبي هذا المعنى بقوله:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تُسعد الحالُ (البرقوقي، 1986: 394)

فالهدية، إذن، مال أو خيل أو ذهب أو شعر أو كلام طيّب يبعث الفرح والسرور.

ولا يختلف كثيرا عما سبق، التعريف الذي يقدمه للهدية كتاب " المفردات في غريب القرآن "، إذ يرى أن الهدية "هي تمليك المرء ماله لغيره بلا عوض" (الأصفهاني، 1412: 541). والتمليك بلا مقابل تصرف شرعي وقانوني تشترك فيه الهدية مع تصرفات قانونية أخرى، ليس هناك مجال لذكرها في هذا المقام.

وفي المعجم الوسيط، كما في لسان العرب، أن الهدية والهديّ معناهما العروس. فإذا كان الهديّ يحمل معنى آخر وهو الأسير، فإن العروس اشتركت في معنى هديّ مع الأسير لاحتمال كونها كالأسير في بيت زوجها (ابن منظور، مرجع سابق: 320).

ومن الألفاظ القريبة من " الهدية "، والتي تكون مصدرا مثلها للفعل أهدى، لفظ الهداء، الذي يعني تسليم العروس وزفها إلى زوجها، إذ نقول: أهدى العروس إلى زوجها أو أهداها أو اهتداها إذا زفها إليه. وفي هذا المعنى نقول: اهتدى الرجل زوجته إذ جمعها وضمها إليه (المرجع نفسه: 320).

ومن الألفاظ القريبة كذلك: مهدى وهداء ومهداء. " فالمهدى " هو الإناء أو الطبق الذي تقدم فيه " الهدية "، كالحلوى أو الفاكهة أو غيرها. ولا يسمى الإناء أو الطبق مهدى، إلا إذا كانت فيه هدية. ويقال للمرأة إنها مهداء، إذا كانت تقدم لجاراتها هدايا، ويطلق ذلك على الرجل أيضا، فيقال: إنه مهداء، إذا كان من عادته أن يقدم هدايا، أما الهداء فهو أن تجيء امرأتان، كل واحدة منهما بطعامها، فتأكلان في مكان واحد (المرجع نفسه: 319).

والذي يمكن الخروج به من هذه التعاريف اللغوية، هو أن الهدية منح وعطاء من قبل شخص لشيء ثمين، أو هو كذلك في نظر المتلقي، سواء أكان الشيء الممنوح مالا أو تحفة أو ذهبا أو قولا جميلا، بمناسبة أو دون مناسبة، تعبيرا عن حب أو كرم أو تودد، أو عن غاية خفية في النفس، والتي بمنحها تدخل الفرح

والسرور على المهدى إليه، وتؤثر بذلك إيجابيا على سلوكه نحو الشخص الذي قدم له الهدية، وتقوى رابطته معه.

هذا من الناحية اللغوية، أما من النّاحية الاصطلاحية، فإن تعريف الهدية، حسب "مارسيل موس Marcel Mauss "، هو أنها " ظاهرة اجتماعية كلية، وهي نظام للتبادل، تبدو في ظاهرها ممارسة اختيارية، غير أنها خاضعة لالتزامات ثلاث: المنح، الاستلام، والالتزام برد العطاء (موس، 2011). وهي عند كلود ليفي ستروس C. L. Strauss ،" واحدة من ثلاث عمليات تبادل تحكم العلاقات الإنسانية منذ تكونها، اللغة حيث نتبادل الكلمات، والقرابة في تبادل الزيجات، والاقتصاد حيث نتبادل الهدايا والأشياء " (الجويلي، 2016: 12). ومن جهته، فإن **أحمد أبو زيد** يعرف الهدية بكونها " الأفعال والخدمات أو الأشياء التي يقدمها الشخص لغيره من الناس، دون أن يتوقع منهم أن يقدموا له أي مقابل لها" (أبو زيد،1967: 251). أما فرانز بواس Franz Boas ، فإنّه يرى بأن الهدية تدخل في إطار المبادلات غير التجارية؛ فهي عنده نوع من المبادلات (مبادلات الأشياء أو النساء)، إلى جانب تقاسم الأشياء والمعاملة بالمثل، وإعادة توزيع الأشياء التي هي مبادلات غير تجارية، وخارجة عن نطاق التبادل النقدي والسلعي.

(dictionnaire de la sociologie,1989 :71)

2. أنواع الهدية:

تأخذ الهدايا المتبادلة بين الأفراد ثلاثة أشكال وهي: هدايا مادية ملموسة، وهدايا معنوية، وهدايا في شكل خدمات, ويختلف تقديمها حسب المناسبة، ونوع العلاقة التي تربط بين المهدي والمهدى إليه، وكذا حسب المستوى الثقافي والاقتصادي للفرد.

أما عن الهدايا المادية، فهي هدايا نقدية في شكل مبالغ مالية، بقيمة كبيرة أو قليلة، أو في شكل أشياء ملموسة كالملابس والأثاث والعطور، والأجهزة الإلكترونية و الكهرومنزلية...الخ. أما الهدايا المعنوية، فإن لفظة المعنوي تظهر طبيعتها الغير محسوسة، التي ترتبط باللغة بصفة خاصة، حيث أن الأفراد ، كما يتبادلون الأشياء والنساء، فإنهم يتبادلون الخطاب وما يمثله من كلام، حسب رأي ليفي ستروس، سواء

بهدف مادي او غير مادي. وتتمثل في عبارات المباركة والتهنئة، التي تختلف حسب المناسبة: دينية أو اجتماعية أو مناسبة وافده من ثقافة مغايرة .

ومن أمثلة الكلام المتبادل: " صح رمضانك "، "عيدك مبارك " أو " صح عيدك " و" ربي يتقبل "، و" بالبركة عليك ويتربى في عزكم"، وهي عبارات تقال بمناسبة الصيام أو الاحتفال بالعيد أو بمناسبة إنجاب مولود جديد، ويقال لأهل العريس من النساء في مناسبة الزواج "بالبراكة عليكم وربي يطيب العيش بيناتكم". أما في عيد المرأة وعيد الأم وعيد العمال فتكون التهاني بعبارة " bonne fête " ، وفي عيد الميلاد بعبارة " joyeux anniversaire "، أما في رأس السنة الميلادية الجديدة فتكون التهنئة بعبارة " Bonne année ".

وهناك مناسبات يحتفل بها الأفراد، ولكنهم لا يتبادلون أثناء إحيائها التهاني مثل: عاشوراء، ومحرم، والشعبانية[1]. كما أن هناك مناسبات أخرى يمكن لبعض أفراد المجتمع فقط تبادل التهاني أثناءها، لارتباطها باعتقادات تخصهم، مثل مناسبة " الناير"، وهو عيد رأس السنة الزراعية العربية والأمازيغية ، أو رأس السنة الأمازيغية ، كما يفضل البعض تسميته. و كما تتم التهنئة باللغتين العربية والفرنسية، فإنها تكون باللهجة المحلية الأمازيغية أيضا في عبارة : " أسقاس أمقاس " وتعني عاما سعيدا.

ويمكن أن تكون الهدية المعنوية في صورة دعاء، كأن يقال للمريض" ربي يجيب لك الشفاء "، وللمحتاج " ربي يرزقك "، وللذي فقد أحدا من أهله أو أقاربه "عظم الله أجرك وربي يبدل محبته بالصبر". ويقال للمقبل على امتحان أو مسابقة "ربي يوفقك ". ولكل من هذه التهاني المتبادلة رد يقابلها بين الأفراد.

وهناك تصرفات أخرى، كالابتسامة التي تبعث على الراحة وتدخل إلى قلب متلقيها فرحا وبهجة، والتي يمكن اعتبارها هدية معنوية بالقياس، لأن « ابتسامة في وجه أخيك صدقة»، كما جاء ذلك في الحديث

[1] عادة يحتفل بها الأفراد في المناطق الداخلية في الأسبوع الأخير من شهر شعبان، وتتمثل في تحضيرهم لإحدى الحلويات التقليدية وتبادلها بين الجيران لتوديعها لأنهم سيحرمون من تناولها في أيام شهر الصيام.

النبوي الشريف. وفي اللغة العربية يتقارب مفهوم الهدية بمفهوم الصدقة، لأن كلاهما يشترك في فعل المنح بدون مقابل، وعليه فإنه يمكن اعتبار الابتسامة هدية كما اعتبرت صدقة.

ومن الممارسات اليومية للأفراد دعوة بعضهم البعض لشرب فنجان قهوة، أو أكل مرطبات، أو تناول وجبة غداء أو عشاء، في البيت أو في المطعم، أو المرافقة من أجل التسوق أو التنزه.

والنوع الثالث للهدية هو تقديم خدمات، وتختلف الخدمة وتتنوع بين المعنوية، وتلك التي تحتاج إلى جهد عضلي. فأما المعنوية فتتمثل في قضاء مصلحة ما أو التوسط لقضائها، وأما الثانية فتتجلى في ظاهرة " التويزة "، التي يعتمدها الأفراد في المجتمع الجزائري، خصوصا في الأوساط التقليدية أو شبه التقليدية، أو بعض الأوساط الحضرية المحافظة، للمساعدة في النشاطات التي تحتاج إلى بذل جهد عضلي، كأعمال البناء وجني المحاصيل الزراعية، لتقليل التكلفة وتقاسم أعباء العمل. وتمارس " التويزة " في أوساط النساء لغسل الأفرشة الثقيلة والكثيرة، وغسل الصوف والنسيج، ولتحضير كمية كبيرة من الحلويات أو الكسكس، وهو ما يسمى بعملية " الفتيل "، أو لطهيه في مناسبة من المناسبات.

3. وظائف الهدية:

يميز روبرت ميرتون Merton Robert ، في تعريفه لمصطلح الوظيفة، بين معنيين: الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة. فالأولى ترتبط بالغاية المستهدفة والكائنة في وعي الفاعلين، الذين يدركونها عند مشاركتهم في النشاط الاجتماعي، ويسعون إلى تحقيقها ضمن ممارساتهم. أما الوظيفة الكامنة فتتحقق دون وعي من قبل الفاعلين، وتكون عادة غير مدرجة ضمن اهتماماتهم ووعيهم مسبقا (Merton, King, 1965: 167). وما يهمنا في دراسة تبادل الهدايا هو الوظائف الظاهرة، التي تتحقق أثناء ممارستها عن وعي من قبل الأفراد، لأن لكل عادة أو تقليد أو شعيرة في المجتمع وظيفة حيوية أو نفعا، يجب إتمامه انطلاقا من مبدأ الوظيفية. وقد ركزنا هنا على وظيفتين، الاجتماعية والاقتصادية لأنهما أساسيتان، ولأن أهميتهما تظهر جلية أثناء الممارسة :

أ. **الوظيفة الاجتماعية:**

غالبا ما تكون الهدية سببا في زرع الود والمحبة والتقارب بين الأفراد. فتبادلها يستوجب الزيارة من أجل تسليمها، ولذلك، فهي تدفع بطريقة غير مباشرة إلى التواصل بين ذوي الأرحام وتقوية العلاقات القرابية والاجتماعية، خصوصا في المناسبات الدينية.

فالعيدية[1]، بصفتها هدية خاصة بعيدي الفطر والأضحى مثلا، تدفع الأطفال إلى زيارة الأهل والأحباب من أجل الحصول عليها، وبالتالي، فإنها تزرع فيهم حب صلة الرحم وزيارة الأقارب، وتعودهم على ذلك. وهذا السلوك الإيجابي الذي يكتسبه الأفراد منذ صغرهم، هو آلية فعالة لاستمراره، وبالتالي تقوية الروابط الاجتماعية مستقبلا.

أضف إلى ذلك، أن الهدية تمثل أسمى صور التكافل والتضامن الاجتماعي، في المناسبات الاجتماعية مثل الزيادة والزواج والوفاة، التي يهب الأفراد فيها إلى تقديم المساعدات بشتى أشكالها، المادية والخدمية والمعنوية.

ب. **الوظيفة الاقتصادية:**

تقودنا دراسة طبيعة التبادل وأنماطه وعلاقاته مباشرة إلى صميم التنظيم الاجتماعي والثقافي، لأنهما يؤثران على الأداء والتنظيم الاقتصادي، خاصة في الأنساق الاجتماعية التقليدية، التي لا يعتمد اقتصادها على السوق. وعلى هذا الأساس، يمكننا مجاراة دالتون Dalton في فهم العلاقات الاقتصادية على "أنها جزء فقط من العلاقات الاجتماعية" (سلوى السيد،2010: 39). فالنظام الاقتصادي البدائي كان يعتبر الهدايا تبادلا لسلع ذات قيمة اقتصادية.

[1] إذا كانت هذه التسمية متعارف عليها في بلدان المشرق العربي، فإن ما يقابلها في بعض المناطق في المجتمع الجزائري هو كلمة **التْعَيْرِيْفَة أو لْكرَامَة** التي تمثل مبلغ من المال ليس له قيمة محددة تمنح نقدا للأطفال في يوم العيد من أجل إدخال الفرح والسرور إلى قلوبهم.(معلومات مستقاة من دراسة ميدانية أنجزتها صاحبة المقال بمدينة قصر الشلالة (تيارت) نصف الأول من سنة 2015)

وبالرجوع إلى المجتمع الجزائري، يمكن أن نلمس نفس الشيء في تبادل الأفراد لهدايا ذات قيمة، ونعني بها الهدايا المادية/الملموسة. إذ لا تقتصر الهدايا ذات القيمة الاقتصادية على ما هو عيني، بل تتعداه إلى الهدايا النقدية، التي تكون في شكل مبالغ مالية تتراوح بين كونها مبالغ كبيرة أو مبالغ قليلة، حسب المناسبة والعلاقة التي تربط بين الفرد الذي يقدم الهدية والفرد الذي تهدى إليه. فالهدية تأخذ بعدا اقتصاديا، لأنها تمثل إعانات مادية في كثير من المناسبات، تتمثل في النقود والمواد الغذائية والأطعمة والألبسة وأدوات العمل والترفيه...

ثانيا. المناسبات والهدايا المرتبطة بها:

يحتفل الأفراد في المجتمع بالعديد من المناسبات ذات البعد الديني والاجتماعي، والتاريخي والثقافي، حيث تحمل كل واحدة من هذه المناسبات اسما خاصا بها، يرتبط بحدث أو واقعة أو تقويم زمني أو شخصيات إسلامية وغير إسلامية خلد اسمها التاريخ الوطني.

إن هذه المناسبات التي تعرف طقوسا وممارسات، غالبا ما تشهد تداخل وامتزاج العادات والطبائع والشعائر الدينية، وتمثل عناصر ثقافية لها حيويتها الخاصة التي تمنحها قوة الانتقال من جيل إلى آخر ، وتصبح أحد الأبعاد المعبرة عن الهوية الثقافية للمجتمع بمختلف عناصره. ويمكن تصنيف هذه المناسبات إلى أربعة محاور، يرتبط بكل واحد منها مجموعة من الممارسات، وهي كالآتي:

- المناسبات الدينية: وهي أول محرم، وعاشوراء، والمولد النبوي الشريف، وأواخر شهر شعبان (الشعبانية)، ورمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى.
- المناسبات الاجتماعية: وتمثل مناسبات تتعلق بالدورة الحياتية للفرد، وما يتخللها من أحداث، مثل: الولادة، والختان، والزواج، والحج والعمرة، والنجاحات، والمرض، والوفاة...
- عادات وممارسات ثقافية، ومنها: رأس السنة الفلاحية " الناير"، التويزة، الضيافة، ورأس السنة الميلادية، وعيد الميلاد، وعيد الحب، وعيد المرأة، وعيد الأم، وهدايا السفر، والهدايا الحاملة للحظ، وهدايا أخرى...

- المجاملات والممارسات اليومية ومنها: التحية والابتسامة، والدعاء، والكلمة الطيبة، وتقديم دعوة...

ويتخلل هذه المناسبات المذكورة آنفا، تبادلات للهدية بكل أنواعها، وذلك ارتباطا بطبيعة المناسبة أو الحدث، كما تتعدد أسماؤها وأسباب تبادلها. وقد أخذت الهدية عدة أشكال ضمن هذه المناسبات. فهي تأتي كطقس ديني، أو سلوك أخلاقي في المناسبات الدينية، مثل نحر الأضحية وتوزيع جزء منها، والصدقة والزكاة، وزيارة الأهل والأقارب لتسليم الهدية، والتحية والدعاء، والكلمة الطيبة.

وقد تتمثل المناسبة في شكل من أشكال العادات، التي ألف الأفراد ممارستها خلال حدث معين. فالمتصفح لكتب التاريخ يجد أن العرب كانوا يقومون بممارسة العلاقات التبادلية على أساس العرف والعادة، دون أن يكونوا بالضرورة ملمين بالمبادئ التي تتحكم فيها، أو بمدى انتشار أو تطبيق هذه المبادئ في المجتمعات الأخرى (الخوري، 1985: 36). فيمكن أن تكون منبثقة من رحم الهوية الثقافية، ومنتقلة بكل عناصرها من جيل إلى جيل ، كما هو الشأن بالنسبة لـ " النار"، والاحتفال بالأحداث الدينية التي ليس عليها دليل، لا في القرآن ولا في السنة، وكما هو الشأن بالنسبة لبعض العادات والأعراف التي تخص كمناسبة الاحتفال بالزواج ومراحل الاحتفال به...الخ.

وقد تكون متبناة من ثقافة مغايرة، توافدت إليه عن طريق وسائل وتكنولوجيات الإعلام والاتصال، وهي كل المناسبات التي تتعلق بالدول الغربية، ولا تمت بصلة إلى الدول الإسلامية، إلا أنها فرضت نفسها حينما أصبحت أعيادا رسمية، وأيام عطل، كعيد المرأة وعيد العمال ورأس السنة الميلادية.

ومن جهة أخرى أخذت الهدية شكل واجب، يتجسد في صورة تعاون وتضامن اجتماعيين، كما هو الحال بالنسبة لوفاة أحد الأفراد، التي هي حدث فجائي غير مرتب له مسبقا، ويحتاج لمواجهته إلى التكافل الاجتماعي، وكما هو الحال بالنسبة لـ " التويزة " بكل صورها. و بذلك تصبح المساعدات العينية متمثلة في شكل مواد غذائية ولحم، والمساعدة في تحضير الطعام، سواء بالطبخ أو بإحضار الأواني، أو غسل الصوف أو المساهمة في أعمال البناء. وهي كلها مساعدات وخدمات يشعر الفرد، في مثل هذه المناسبات، أن من واجبه تقديمها. فهي جزء من النظام القيمي للجماعة، ومن الضرورة مراعاتها والمحافظة عليها.

إن هذا العطاء الموجه للفرد المتلقي للهدية يجعله في تبعية تجاه مانح الهدية، فيعتبرها دينا أو عارية (ما يعار ويستعار) يجب ردهما. فالهدية سلوك عقلاني يحمل عنصر التنبؤ، لأن الفرد يدرك سبب تبادلها وما ينتج عن ذلك، أي أنه يمنحها الآن، لأنه يتوقع أنه سيستلمها في وقت لاحق، عندما يكون بحاجة إليها، مثل حلول مناسبة الزواج. فالعازب يلبي دعوة حضور زفاف، ويقدم هدية، لأنه سينتظر استلامها بنفس القيمة أو أكثر من ذلك في زفافه مستقبلا. إذن فالتفكير النفعي الاقتصادي ، بخصوص تبادل الهدايا ينافس الجانب العلائقي الاجتماعي.

ثالثا: الهدية وخاصيتها السوسيو- اقتصادية

غالبا ما نجد في الدراسات الأجنبية والفرنسية خاصة، استخدام كلمة lien ذات الأصل اللاتيني ligament في مقابل مفهوم رابطة، التي تعني الشيء الذي يبحث عن الارتباط والربط. إذ أن كلمة " رابطة " أخذت معناها من الربط أي " الجمع وخلق علاقة "، فيقال عن حصول جمع بين شيئين ، هناك ترابط بينهما. ويمكن لهذا الترابط أن يكون في حالة ظاهرة أو ضمنية، في حالة العمل على خلق وحدة تتعلق بالنوع الإنساني. وإذا كانت هذه الألفاظ تدل على دلالات متقاربة، تفيد الجمع والربط وخلق علاقة ما بلا فرق بين الأشياء بعضها مع بعض أو الأفراد بعضهم مع بعض أو بين الأفراد والأشياء، فإن المفهوم الاصطلاحي المستخدم في العلوم الاجتماعية هو الرابطة الاجتماعية، منظورا إليه على أنه نوع من العلاقات الاجتماعية، أو مجموع من التفاعلات التي تعمل على ربط الأفراد فيما بينهم (سوالمية، 2015: 29)، أي ما يجعل الجماعة وحدة متماسكة تماسكا يمتاز بالثبات النسبي، ويفيد في تأدية وظائف اجتماعية نافعة، حيث يمكننا اعتبار الهدية وسيلة لتحقيق الرابطة الاجتماعية.

إذن فتبادل الهدايا يعتبر شكلا من أشكال المبادلات الاجتماعية، الضرورية لتحقيق الرابطة الاجتماعية، وتتعدد هذه الروابط الاجتماعية ما بين العلاقات القائمة على أساس الدم، التي تكون بين الفرد وأسرته وأقاربه، والعلاقات التي تنشأ بالمصاهرة والزواج، وتلك التي توجد على أساس الجيرة و

الصداقة وزمالة العمل، و تلك التي تحركها المصالح. وهذا ما عبر عنه الباحث محمد بومخلوف، وهو يتطرق لأبعاد الروابط الاجتماعية بين الأفراد، حيث يرى أنها ذات أبعاد ثلاث (المرجع نفسه: 31):

1. بعد طبيعي يعبر عنه بالروابط الدموية القائمة على النسب والعصبية.
2. بعد تقليدي ثقافي مكتسب، قائم على الأعراف والمثل والقيم المشتركة، ويعبر عنه بالروابط التقليدية، ويضم كلا من الجيرة والصداقة والزمالة التي تمتاز بنوع من الالتزام.
3. بعد عصري وحديث، قائم على التضامن العضوي، المتمثل في روابط يميزها الاتساع وتفرضها الحياة العصرية المعقدة.

وتمتاز العلاقات الاجتماعية أثناء ممارسة الهدية بنوع من الثبات والاستقرار، غير أننا لا نستطيع أن نستبعد الصراع، الذي يمكن أن تسببه قيمة الهدية أو الامتناع عن ردها. فانخفاض قيمة الهدية يمكن أن يضعف العلاقة بين الطرفين، أما الامتناع عن ردها، خصوصا إذ سبق ذلك استلام، فإنه قد يولد فتورا في العلاقة، مما يؤدي مستقبلا، في حالة الامتناع المستمر، إلى انقطاعها كليا، وهذا ما يؤكده المثل الشعبي المتداول، والمستمد من الهوية الثقافية للأفراد، التي تعتبر إحدى مصادر سلوكهم و موجهاته: " من عندي ومن عندك تنطبع ومن عند واحد تتقطع".

إذن فالمبادرة بالعطاء من قبل طرف ستضع الآخر في موقف المعاملة بالمثل. وعلى هذا الأساس فإن الالتزام بردها يمثل إعادة إنتاج لطبيعة العلاقات التي تجمع الأفراد فيما بينهم، و قيام هذا الالتزام أو غيابه هو الذي يؤدي إلى تماسكها أو ضعفها.

وبالرجوع إلى المجتمعات البدائية التي درسها كل من موس و مالينوفسكي، والتي كانت تمارس الهدية كنظام للتبادل الاجتماعي والرمزي، نجد أن الأفراد كانوا يكتسبون، من خلال تبادلها، الهيبة والشرف واستمرار العلاقات. ويظهر ذلك من خلال ما يقوم به هؤلاء من تصرفات مسرفة في بذل وإتلاف كمية كبيرة من الهدايا، من أجل ذلك، دون الاكتراث بحجم الخسائر. غير أن هذه الممارسة لا يمكن القيام بها، ولا يمكنها أن تتم بهذه الصورة، في مجتمع لحقه التغير الاجتماعي، وأصبح يتجه نحو اقتصاد السوق، أي

نحو مجتمع قائم على أساس القيم المادية، التي تتحكم في حياة الفرد وتؤثر في سلوكه، بحيث أن المنفعة وطغيان المصلحة الفردية هي التي أصبحت تحدد علاقة الفرد بالآخرين، وتطغى على كل علاقة أخرى.

وقد استند جان بودريار على هذه الفكرة في تحليله للسلوك الاستهلاكي للفرد وموجهاته، حيث وجد " أن المعايير الجديدة الخاصة بالمجتمع المعاصر جعلت الفرد ينتقل من نسق العلاقات الاجتماعية والرمزية، إلى نسق العلاقات المادية والاستهلاكية " (الجلالي، 2017).

غير أنه في مجتمعنا اليوم، تظهر طبيعة هذا التبادل في صورة ازدواجية، تتأرجح فيها تبادلات الهدية بين تلك القائمة على أساس العلاقات العائلية القرابية، التي تحكم المجتمعات التقليدية، والأخرى القائمة على العقلانية والمنفعة التي توجهها المصلحة الخاصة، التي تميّز المجتمعات الحديثة. و يمكن الاستشهاد، عندما نتحدث عن الهدية والتغير الاجتماعي في الحياة المعاصرة، برأي فرديناند تونيزF.Tonnies حيث يقول: " أن المجتمعات العضوية قائمة على الروابط الاجتماعية الحقيقية، المتمثلة في روابط العائلة والقرابة، أما المجتمع الجديد المعبر على الإرادة المفكر فيها والعقلانية، فهو مجتمع آلي، تسوده الفردانية والعلاقات الباردة، وهو متميز بالروابط الجافة، لأنها قائمة على المصلحة المادية والفردية" (سوالمية، مرجع سابق: 45). فبالرغم من تذمر الأفراد من كثرة المناسبات، حين تجيء في فترة واحدة أو خلال فترات متقاربة، نظرا لما يتطلبه ذلك من نفقات على الهدايا تثقل كاهلهم ، إلا أن هذا لا يحول دون تقديمهم للهدايا، من باب الواجب الاجتماعي والإلتزام، خصوصا إذا سبق هذا العطاء استلام لهدية، حيث أنهم يعتبرونها ضريبة يجب تسديدها ودينا يجب الوفاء به.

خاتمة:

ليس الإنسان دائما حيوانا اقتصاديا ، بل إنه كذلك حيوان واهب، كما سماه جاك غودبو، فالمجتمع اليوم يحوي النموذجين معا:" الاقتصاد والهبة "، إنه مجتمع نفعي حديث يقوم على السوق والإدارة والعلم...الخ، ومجتمع علائقي بدائي يقوم على الروابط الاجتماعية والشبكات التضامنية (الوكيلي وآخرون، 2016: 4). ومع التغير الاجتماعي، الذي تشهده المجتمعات اليوم، لا يمكن أن تترفع ممارسة

الهدية عن طلب المنفعة، بدليل أن الأفراد يعتبرونها دينا وضريبة، وأن عدم تبادلها يمكن أن يفسد العلاقات الاجتماعية بينهم، ويرجع ذلك لتغير الوضع الاقتصادي للفرد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه مهما تعددت مناسبات الهدية وأشكالها وأسباب تبادلها، إلا أنها لا تخلو من نبل العطاء، ومن التعبير عن السخاء والكرم، الذي ينطلق من مبدأ أخلاقي وديني في كثير من الأحيان. إلا أن " هذا المبدأ في التبادل،(قد) تراجع بحدة أمام طغيان منطق السوق الرأسمالية، والسعي المتواصل وراء تحقيق المصالح الفردية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، و (هو) يهدد بضرب كل الانسجام الاجتماعي ،الذي ظل لقرون طويلة الضمان الأخلاقي لاستمرار الجماعة " (المرجع نفسه: 67).

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1. القرآن الكريم.

المراجع:

2. ابن كثير(2006)، تفسير القرآن العظيم، دار البيان العربي، القاهرة.
3. ابن منظور (1997)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد السادس.
4. أحمد أبو زيد (1967)، البناء الاجتماعي، الجزء الثاني، المكتب الجامعي الحديث.
5. الأصفهاني (1412)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان، ط 1، دار القلم، دمشق.
6. سلوى السيد عبد القادر (2010)، الأنتروبولوجيا الاقتصادية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
7. عبد الرحمن البرقوقي (1986)، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت.
8. فيليب لابورت- تولرا، جان- بيير فارنييه (2004)، اثنولوجيا انتروبولوجيا ، تر: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
9. راجع: مارسيل موس (2011)، بحث في الهبة: شكل التبادل و علته في المجتمعات القديمة، تر: المولدي الأحمر، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت.
10. محمد الجلالي "من الفعل الاجتماعي إلى الفعل الاستهلاكي"، الحوار المتمدن، تصفح يوم 2017/07/26، على الساعة 15:23، http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=403769&r=0.
11. محمد الجويلي (2016)" الهدية عند العرب طقس اجتماعي يختزل الروابط الإنسانية" مجلة العرب، العدد 10242، السنة 38.
12. ؟ (2008) المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط 3، دار المشرق، بيروت، لفظة هدى.

13. أنظر: نورية سوالمية (2015)، الرابط الاجتماعي الحضري: دراسة سوسيوأنتروبولوجية للعلاقات الاجتماعية بين الجيران في حي الهضاب بأرزيو (وهران، رسالة دكتوراه في الأنتروبولوجيا، جامعة وهران.

14. يونس الوكيلي وآخرون (2016)، تراث الأنتروبولوجيا الفرنسية: في تقدير الممارسة الفكرية لمارسيل موس، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب.

15. Jean Boudrillard (1970), La société de consommation, Ed. Idées/Gallimard, Paris.

16. Merton, Robert King (1965) , Eléments de méthode sociologique, Ed Plon.

17. Voir : dictionnaire de la sociologie (1989) : La Rousse, Paris.